منطلقات إسرائيل للسلام

الدكتور عبد الستار قاسم

يتساءل العديد من المراقبين والسياسيين العرب عن سبب امتناع إسرائيل عن الاستجابة لمبادرات سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني نحو تهدئة الأوضاع ووقف ما يسمى بالعنف من أجل استئناف المفاوضات. تدعو إسرائيل إلى وقف العنف وتصر على السلطة الوفاء بالتزاماتها الأمنية تجاه إسرائيل وكما تنص عليه الاتفاقات الموقعة، ومع كل مرة تقوم فيه السلطة بتنفيذ مهمات ضد المقاومين الفلسطينيين تستمر إسرائيل في الملاحقة والاغتيالات وكأن التهدئة يجب أن تكون من الجانب الرسمي الفلسطيني فقط. ويبدو أن أغلبهم يستسهل تفسير ذلك بتحميل رئيس وزراء إسرائيل الحالي المسؤولية ووصفه بأنه رجل حرب متعطش للدماء وغير منسجم مع التطلعات الدولية في إنهاء حالات الحرب وحل النزاعات. يشترك فلسطينيون من داخل السلطة ومن أصحاب المراكز الممولة أجنبيا في هذه الرؤية، ويرددون إمكانية المضي في عملية السلام في حال غياب شارون أو في حال ممارسة الولايات المتحدة لضغوط كبيرة عليه.

أرى أن هذا التفسير لتصعيد إسرائيل العسكري في ظل الظروف القائمة حاليا في فلسطين عبارة عن تبسيط للأمور إن لم يكن في الحقيقة سذاجة أو هروبا من الحقائق. من الصعب أن ترتبط عملية توفيق كبيرة تشترك فيها دول كثيرة وقوى عالمية لشخص. قضية فلسطين عبارة عن قضية ضخمة ومعقدة جدا وكلفت العالم الكثير من عدم الاستقرار ومن الانفجارات والتكاليف المادية وغير ذلك، وهي بالتأكيد أكبر من أن يتسع لها شخص واحد مهما كانت عظمته وجبروته. يذهب الأمر حسبما أرى إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير وله منطلقات ومرتكزات فكرية وثقافية وتاريخية وأمنية تميز فهم الصهاينة للصراع وأسس تثبيت أنفسهم في المنطقة والزحف عليها مهيمنين.

قبل تبيان هذه المنطلقات تجدر الإشارة إلى أن المواقف الإسرائيلية على المستوى الحزبي والشخصي تتباين إنما في الغالب فيما يخص التفاصيل وليس المبادئ. فمثلا يتفق الجميع على رفض حق العودة، لكن لدى بعضهم الاستعداد للسماح بعودة بعض كبار السن غير القادرين على تشكيل أسر وذلك لحفظ ماء وجه بعض القيادات العربية أو الفلسطينية، وبعضهم الآخر يرفض رفضا قاطعا عودة أي فرد لأي سبب كان. وعلى ذلك نقيس.

يمكن تلخيص المنطلقات الإسرائيلية فيما يلي:

أولا: لا يثق اليهود بالعرب والمسلمين وهذه صفة يتميز بها الإسرائيليون الآن. من الناحية التراثية التوراتية، يعتبر اليهود أنفسهم شعب الله المختار وأنهم يتفوقون على كل الشعوب التي هي حسب عقيدتهم عبارة عن حيوانات بصورة بشر. ربما تخلص بعضهم بخاصة العلمانيين من هذه النظرة السوداوية تجاه الآخرين عموما، لكن لا يبدو أن هذا ينطبق على العرب. من مراجعة أدبياتهم وتصريحاتهم وأقوالهم يظهر أنهم ما يزالون متمسكين بالقول: "لا تأمن لعربي حتى بعد وفاته بأربعين عاما." إنهم على قناعة بأن العرب أصحاب ثأر وحقد ولا ينسون الإساءة، وإذا ظهرت عليهم استكانة فذلك بسبب ضعف وليس بسبب تسامح. وبما أن العظام لا تبلى قبل أربعين عاما، فإن عظم العربي يبقى قاتلا إذا لاحت له فرصة إصابة قدم. ولهذا يرى أغلب اليهود الصهاينة أن العرب والمسلمين لا يمكن أن يحترموا اتفاقيات سلام إذا شعروا بالقوة وأن ضعفهم هو الذي يجرهم الآن على السعي نحو التذلل والاستعطاف.

بجانب عدم الثقة، ينظر الإسرائيليون إلى العرب باحتقار ويرون أنهم متآمرون لا ذمة لهم ولا ضمير، وأنهم انتهازيون ويحرصون على مصالحهم الخاصة حتى لو كانت مغموسة بالـذل. والقول السائد لديهم أن العرب يشبهون السجاد العجمي الذي تزهو ألوانه مع كثرة الأقـدام التـي تدوسه. أنت تملك العربي، حسب رأيهم، ما دام بحاجتك، واتركه بدون عطاء يبقى لاهثا خلفـك. أما إن أعطيته فإنه لا يكف عن الإلحاح في طلب المزيد.

ثانيا: يدرك الإسرائيليون أن فلسطين عبارة عن أرض مقدسة لدى العـرب والمسـلمين، وأن الغالبية من الناس يؤمنون بهذا ولديهم الاستعداد إذا سنحت الظروف للتضحية بشكل أو بآخر من أجل تحريرها. هناك جزء من العرب والمسلمين ليس متحمسا لهـذه القدسـية لكنـه يبقـى محصورا في دوائر الحكم وعدد من المثقفين، أما جماهير الناس فما زالت على دينها. وهل مـن المعقول الاستناد إلى عملية سلام لا ترتكز على عمق جماهيري يضمن لهـا الاسـتمرار؟ تـرى إسرائيل أن العملية السلمية ليست مجرد اتفاقيات وإنما عبارة عن ثقافة، ولا بد من مرور وقـت طويل قبل أن تتحول الاتفاقيات من الورق إلى قلوب الناس.

ثالثا: يرى عدد كبير من الإسرائيليين أن الحكومات العربية القائمة حاليا استبدادية وقمعية وغير مستقرة. إنها حكومات ظالمة ومكروهة من قبل شـعوبها ومهـددة بـالزوال إذا تفجـرت الأوضاع الداخلية في دول عربية. وحسب ما هو متوقع، فإن أي اتفاقات سـلام سـتذهب أدراج الرياح مع موقعيها. ولهذا يرون أن السلام الحقيقي يجب أن يتم مع دول ديمقراطية وتمثل شعوبها وليس مع مجرد أشخاص طغاة يحكمون بوسائل الفساد وأجهزة الأمن. لكن المشـكلة أمـامهم أن الظرف التاريخي الحالي لا يسمح بالديمقراطية التي يريدون وهي التي تأتيهم بالأشخاص الـذين يريدون. تقديرهم الآن أن الديمقراطية في الوطن العربي ستفرز من يعبرون عن نبض الشـارع الذي ما زال ينبض على الأقل ببعض الأصالة والالتزام بالقضايا العربية.

أضف إلى ذلك ن الديمقراطية قد تأتي بالحركات الإسلامية إلى سدة الحكم ممـا يضـيق الدائرة على الإسرائيليين. حسب تقديرهم، الحركات الإسلامية تكسب زخما وقـوة ولا يبـدو أن أعمال التصدي لها تقود إلى نتائج إيجابية. وحتى لو تم سلام مع أنظمة عربيـة حاليـة أو مـع فلسطينيين فإن الحركات الإسلامية ستبقى ألما في الظهر وقد تكسره. هذا ناهيـك عـن تصـاعد الوعي القومي العربي على الأقل على مستوى المثقفين والفضائيات العربية وما يعنيه ذلـك مـن آثار على التوجه الجماعي ومعاداة لإسرائيل والقوى المساندة لها. ومن الملاحظ أن التقرب مـن إسرائيل أو الدفاع عن السلام معها ينحصر في رؤى محلية تستسلم للأمر الواقع دون تطلع إلـى المستقبل إلا من زاوية الرفاء الاقتصادي.

رابعا: البعد الأمني هو الركيزة الأساسية في السياسة الإسرائيلية عموما وفي تطلعها نحو العرب خاصة. يرى الإسرائيليون أن المسألة الأمنية كانت الحافز الأكبر نحـو قيـام التنظيمـات اليهودية في أوروبا بما فيها الحركة الصهيونية، وأن البحث عن الوطن القومي كان في الأسـاس أمنيا على الرغم من امتزاجه بعناصر دينية وتاريخية. ولهذا يحرصون على الدقة الأمنيـة إلـى درجة الهوس ودون أن يكون لديهم الاستعداد للمغامرة أو المقامرة أو فتح ثغرات. وفي سبيل ذلك حرصوا منذ البدء على النقاط التالية:

أ- الاعتماد على الذات عسكريا والتخلص من الاعتماد على الآخرين بمن فـيهم الولايات المتحدة. ركزوا على التصنيع العسكري ومواكبة التطورات العلميـة والتقنية حتى لا يقعوا ضحية لسياسات الآخـرين ومصـالحهم. والآن تعتبـر إسرائيل من الدول المتقدمة في التصنيع العسكري وتصدر أسلحة متطورة إلى دول متعددة بمن فيها دول عظمى. ما زالت إسرائيل تحصـل علـى أسـلحة

متطورة من الولايات المتحدة لكن جزءا من ذلك يعود إلى تنازل إسرائيل عن إنتاج طائرة ليفي الاستراتيجية.

ب- التحصين الداخلي الذي يشمل إجراءات احتياطية في مختلف مناحي الحياة وفي كل مكان يخصهم بما في ذلك سفاراتهم وممثلياتهم ومراكزهم التجارية وغير ذلك. إسرائيل عبارة عن حصن أمني قوي.

ت- ضمان الهيمنة العسكرية في المنطقة والإبقاء على تفوقها العسكري على كل الدول العربية مجتمعة. تساعدها الآن الولايات المتحدة على ذلك من خلال تزويدها بالسلاح ومنع العرب من امتلاكه. وعلى الرغم من حرص أمريكا على هذا الأمر إلا أن إسرائيل تحاول ضمان ذلك بقواها الذاتية.

ث- تدمير القوة العربية وقائيا إذا أصبح خطرها داهما، والإبقاء على الجيوش العربية بعيدة عن المراكز السكانية اليهودية مع ضمان خوض معارك محتملة على الأرض العربية. ولهذا هاجمت إسرائيل العرب مرارا وأصرت على وجود مناطق عازلة مثل سيناء وغور الأردن.

ج- عدم توقيع اتفاقيات مع العرب إلا إذا كانت تعني التزامهم بأمن إسرائيل. وهذا يتطلب: التزام العرب بعدم التسلح بما يهدد التفوق العسكري الإسرائيلي والإبقاء على مناطق عازلة مع توظيف قوى أمنية لمراقبة الحدود ومنع المتسللين؛ ملاحقة من تسميهم بالإرهابيين؛ منع التحريض بكافة أشكاله بما في ذلك ما يمكن أن يرد في المناهج المدرسية وفي الندوات والمحاضرات والدروس الدينية ووسائل الإعلام وغير ذلك. ويتطلب أيضا صنع ثقافة السلام التي تعتبر إسرائيل جزءا لا يتجزأ من المنطقة وفيها ومراعاة كل ما يتطلبه ذلك من احترام وتعاون وتسامح ونسيان للتاريخ والآلام. تاريخ المنطقة هو تاريخ إسرائيل أما تاريخ العرب والمسلمين فيبدأ من اليوم الذي يبدأ فيه السلام. والطموحات تنحسر إلى التطلعات الاقتصادية وتحسين الظروف المادية، وتتراجع معها التطلعات نحو العزة والكرامة والوحدة.

خامسا: للفلسطينيين حقوق مدنية ودينية ومن المهم مراعاتها. تلتزم إسرائيل على الأقل نظريا بما ورد في تصريح بلفور لعام 1917 حول احترام الحقوق المدنية والدينية لمن وصفهم بالطوائف غير اليهودية في فلسطين. وقد ظهر التزامها هذا في اتفاق أوسلو وما ترتب عليه من اتفاقيات من حيث أنها عبارة عن تفسير موسع لتصريح بلفور. أي أن الفلسطينيين بالنسبة لها عبارة عن مجموعة من الناس لهم الحق في العمل والطعام والتعليم والرعاية الصحية وليسوا جماعة يستحقون كيانا مستقلا يقررون فيه لأنفسهم بمعزل عن إرادات الآخرين. إنهم يساقون لقاء راحتهم المادية كأفراد غير متواصلين كجماعة ولا يسوقون.

يكثر حديث الإسرائيليين والأمريكيين حول قيام دولة فلسطينية لكن أيا منهما لم يوضح تفصيلا وتحديدا ما يعني بذلك. إنهما لا يخرجان عن القاعدة التي رسماها مع دول أخرى حول المنطقة والمرتكزة على تصريح بلفور وصك الانتداب لعام 1922. ربما يقول أحد أن هذا غير دقيق من حيث أن إسرائيل أبدت استعدادا عام 2000 في كامب ديفيد للانسحاب من حوالي 95% من أراضي الضفة الغربية ولإقامة دولة فلسطينية. ذلك لم يكن سوى تقارير إعلامية ولم نقرأ شيئا مكتوبا بتفاصيل حول هذه الدولة.

وحتى في ظل تمزقهم إلى أفراد يبحثون عن لقمة الخبز، علـى الفلسـطينيين أن يكونوا حراسا على أبواب إسرائيل وأن يلتزموا بكل ما تطلبه إسرائيل أمنيا.

السؤال يبقى: من هو البطل العربي الذي يستطيع أن يضع الأمة في جو مناسـب لإسرائيل حتى نتوقع منها التزاما بسلام؟ البطل المطلوب هو بطل مستسلم تمامـا قـادر تماما على قيادة شعب خانع فاقد لأدنى حس بالكرامة لكن لقاء بعض المال يغلق بها فـاه شعبه ويلبي من خلالها شهواته وشهوات معاونيه. هناك قادة مستسلمون لكنهم يصطدمون بمن يقضون لهم مضاجعهم. يحاول قادة كثيرون لي الأذرع وترويض الناس وإخضاعهم، وإلى أن يتم لهم ذلك سيبقون قي دائرة الديبلوماسية التقليدية مبررين فشلهم بأمور واهيـة مثل تعنت رئيس الوزراء الإسرائيلي. وبالرغم من الجهود الحثيثة والمخلصة التي يبذلها قادة عرب للوفاء بمتطلبات إسرائيل للسلام إلا أنني أرى حسرتهم مدفونـة معهـم فـي قبورهم.

على أية حال، إسرائيل وأمريكا لا تعتمدان تماما على قادة عرب وتحاولان اتباع سياسات تصنع لهما الظروف المناسبة، وهذا ما سأتعرض له في مقال قادم.